أتيكوس حكيمًا

كان وقتًا ممتعًا حقًا هذا الوقت الذي قضيته قارئًا لرواية " أن تقتل طائرًا بريئًا " لكاتبتها الأمريكية " هاربر لي " .. ففي واحد وثلاثين فصلاً استطاعت أن تحيك رواية بأروع ما تكون حياكة الروايات .. ولا تنبت في نفوسنا أي ملل على الرغم من أن الرواية تجاوز حدود خمسمائة وخمسين صفحة و لا تتجاوز حدود مدينة مايكوم (May comb) .. واستطاعت الكاتبة هاربر باقتدار أن تجعل من سكاوت (Scout) راوية الرواية حكاءة رائعة .. فتبهر قارئها ليس بأحداث الرواية فحسب ، ولكن بشخص الراوية الجميلة سكاوت .. ولكن أجل ما أسرني في هذه الرواية هي شخصية أتيكوس (Atticus) .. هذا المحامي الشريف الذي يقرر الدفاع عن الزنجي مهما كلفه ذلك من متاعب له ولأسرته.. و قد رُسمت هذه الشخصية باحتراف حقيقي .. وبخيال دقيق يصل لدرجة الاهتمام بتصوير حركة نظارته على أنفه ، وكيف يردها للوراء؟ .

و لعل كم هذا الجمال الساكن في نفس أتيكوس هو الذي جعل الكاتبة تبدأ روايتها بجملة تشير بها إلى المحامين .. الذي منهم أتيكوس .. " **المحامون، أظنهم كانوا أطفالاً يومًا ما** ".. مقولة لتشارلز لام (Charles Lamb) اقتبستها الكاتبة كي تُقدِم بها لروايتها .. لما قرأت هذه المقولة لأول مرة قبل قراءة الرواية ظننت أنها تشير إلى مكر فئة من المحامين وخداعهم.. ولكن بعد الشروع في قراءة الرواية عرفت أن الكاتبة استهلت بهذه المقولة إشارة للحكمة التي تسكن عقل محامٍ كأتيكوس .. وكان هذا واضحًا من كم ما يقوله أتيكوس من حكم راقية خلال سطور هذه الرواية .. كم من الحكم دفعني أن أكتب المقال عن أتيكوس حكيما.

كانت العلاقة الرائعة التي بين أتيكوس وولديه سببًا رئيسيًا خلف استرسالهم في الحديث معه مما يجعل أتيكوس يثمر حكمًا ولقد منح أتيكوس ولديه مجموعة من القواعد التي تعلمهم كيف يتعاملون مع الناس .. ومن تلك القواعد التي ينصح أتيكوس ابنته سكاوت بها في الفصل الثالث عندما جاءته تشتكي له عدم قدرتها على التعامل والتعايش داخل المدرسة ...

فقال لها " **إذا تمكنت من تعلم حيلة بسيطة يا سكاوت فستتعايشين على أفضل نحو مع جميع البشر .. ليس بإمكانك أن تفهمي شخصًا ما حتى تنظري للأمور بمنظوره** " .. ويردف قائلاً " **حتى تلبسي جلده و تتعايشي تمامًا معه** '' فكل منا يسكن نقطة ما.. ينظر و ينفعل من خلالها.. وكل منا أسير نقطته .. تلك النقطة التي تتكون بعوامل عدة .. ذاتية واجتماعية.. كالثقافة التي تتاح لكل شخص منا .. لذا فكي نكون قادرين على فهم الآخرين جيداً.. علينا أن نقف حيث يقفون.. و نفكر في الأمور كما يفكرون .. هنا فقط يتحقق لنا الفهم الحقيقي للآخرين .

ولكن أحياناً ما تكون هناك عوامل تحول بيننا وبين إدراك الحقائق.. و تقودنا للإدراك الكاذب .. و أحد هذه العوامل هو مظهر الشيء الذي نريد إدراكه.. فكثيراً ما يخدع الإنسان بمظاهر الأشياء .. و يرى الشر خيرًا .. و يرى الخير شرًا.. و لعل هذا هو ما حمل أتيكوس على تنبيه ابنته سكاوت لشر الوقوع في الاعتماد على مظاهر الأشياء و صفاتها .. واقتنعت سكاوت بما قاله أبوها لدرجة أنها نقلته إلى أخيها جيم (Jem) في الفصل السابع من القصة .. فقالت له سكاوت " **قال لي أتيكوس إنه عليَّ أن أتخلص من استخدام الصفات وعندئذٍ سأرى الحقائق** " .

ومن المشاكل الأخرى التي واجهتها ابنة أتيكوس في التعامل مع الناس .. هي اختلاف هؤلاء الناس .. فكل منهم له شخصيته .. و بالتالي كل منهم له طريقة التعامل التي يجب أن تكون معه.. لم تدرك سكاوت هذا من قبل ، ولذلك كانت تتعامل مع الجميع بشكل واحد .. وتتكلم معهم بطريقة واحدة ، وفي أمور واحدة .. عادة ما تكون الأمور التي تمثل اهتماماتها هي، وليست اهتمامات الآخرين.. و لذلك فلقد نصحها أتيكوس الحكيم في الفصل الخامس عشر قائلاً " **إن من حسن الأدب أن نتحدث إلى الناس حول اهتماماتهم .. و ليس حول اهتماماتنا نحن** " .

كان من أحد الأحداث الشيقة بحق في هذه الرواية .. هذا الحدث الذي ذهب فيه أتيكوس لحراسة توم روبنسون (Tom Robinson) في سجنه لمدة الليلة التي تسبق المحاكمة .. فجاء إليه مجموعة من الغوغاء الذين كانوا ينوون قتل توم روبنسون .

ولكنهم وجدوا أتيكوس في مواجهتهم حارسًا لتوم روبنسون .. فتشاجروا معه .. وكان الشجار سببه أن أتيكوس سيدافع عن توم هذا الزنجي المتهم زورًا باغتصاب واحدة من البيض .. و لم يكن من المتصور أن التي ستدفع عن أبيها هذا الخطر الحال .. هي سكاوت تلك الفتاة ذات الثمانية أعوام .. ولعل هذا ما دفع أتيكوس أن يشرح لابنه جيم هذا الموقف العجيب الذي ثار أمامه .. وكان هذا في الفصل السادس عشر عندما أفهمه قائلاً " **إن الغوغاء هم بشر في كل الأحوال** ".. ولذلك فمن المتصور أن يشعروا.. و أن يتأثروا بما يشعرون به.. فيردهم هذا الشعور عن أفعالهم المنكرة .. ثم يردف أتيكوس قائلاً " **إن عصابة من الوحوش يمكن أن توقف عند حدها لأن أفرادها ما زالوا بشرًا**" .. وهذا ما استطاعت سكاوت أن تفعله .. عندما حدثتهم بحديث ملؤه البراءة .. فبراءتها قتلت ما فيهم من شر.. ولكن إذا واجه هؤلاء الغوغاء بالقسوة .. ما كان قد جنى وعائلته إلا القسوة .. فهذه المعادلة تتشابه وأفكار أتيكوس .. فهذا هو رأيه الذي تذكره جيم في الفصل الثالث و العشرين .. " **إن حمل البندقية هو دعوة لغيرك كي يطلقوا النار عليك** " .

ووجهة النظر التي تقول بوجود طبيعة بشرية لا تموت تسكننا جميعًا.. مهما بلغ ظاهرنا من القسوة أو الغرور.. تتأكد خلال الفصل الواحد و الثلاثين (الأخير).. عندما رأت سكاوت أرثر رادلي (Arthur Radly) – بو رادلي – .. وكانت هذه المرة الأولى التي تراه فيها وكذلك المرة الأخيرة .. وكانت تظن من قبل رؤيته أنه على درجة من القسوة والجرم.. و لكنها وجدته خلوقًا معها ومع أخيها بعدما استطاع إنقاذهما من موت محقق .. فأخبرت أتيكوس بشعورها هذا .. وأخبرته بأن بو رادلي لطيف حقًا .. فرد عليها أتيكوس بأن " **معظم الناس هكذا يا سكاوت حين ترينهم أخيرًا** " .

كان كل ما أخبر به أتيكوس من روائع الحكم التي تعلم أبناءه كيف يتوافقون مع مجتمعاتهم ؟ .. ولكن التوافق مع المجتمع لا يغني أبداً عن التوافق مع النفس .. بل إن التوافق مع النفس يسبق دائمًا التوافق مع المجتمع.. وهذا هو ما دفع أتيكوس للاستمرار في الدفاع عن توم روبنسون إرضاءً لضميره .. على الرغم من أن دفاعه هذا قد جلب على أسرته الكثير من المشكلات .. فلقد ازدراه بسبب هذا الدفاع أهل مدينة مايكوم هو و عائلته .. مما آذى ابنه جيم وجعله يشتكي لوالده .. فقال له والده الرائع أتيكوس في الفصل الحادي عشر " **و لكن قبل أن أستطيع التوافق مع الناس ، عليَّ أن أتمكن من التوافق مع نفسي ، فالشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان** " .

وبذلك دخل أتيكوس القضية مدافعًا عن توم روبنسون .. وهو يعلم أنه خاسر .. لا لشيء سوى للانتصار لضميره وقضيته .. ولقد تحدث في هذا الأمر مع ابنته المدللة سكاوت وقال لها في الفصل التاسع " **لا تعني هزيمتنا و قد مضى عليها مائة عام أن نتخلى عن السعي للانتصار** " .. وكان يرى في هزيمته شجاعة حقيقية .. وهذا ما أنبأ عنه ابنه جيم في الفصل الحادي عشر قائلاً " **أردتك أن تعرف معنى الشجاعة الحقيقية، بدلاً من أن تفكر في الشجاعة على أنها رجل يحمل بندقية.. الشجاعة تكون حين تعلم أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ ، و لكنك تبدأ على أية حال ، و تحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى أخرها مهما كان الأمر .. قد لا تكسب إلا نادراً ولكنك ستكسب على أية حال** " .

كان أتيكوس كذلك واقعيًا .. فهو ليس هذا الحكيم الذي يبني من أفكاره قصور وهم .. و لا يعرف حقيقتها إلا بعدما ينسج الشيب رأسه.. وهذا يتجلى في رده على ابنه جيم عندما جاءه في الفصل الحادي عشر حزينًا بعد مصالحته للسيدة ديبوز (Dubose) عن إفساده لحديقتها .. فلقد تهكمت على مدافعة أبيه عن الزنوج .. فرد عليه أتيكوس قائلاً

"**لكننا لا يمكن أن نتوقع أن نحصل دائمًا على ما نريده** " .. وبذلك يجب أن نؤدب أنفسنا دائماً في تعاملنا مع رغباتنـــا .. فأن نريد .. هذا شيء .. وأن نحصل .. هذا شيء آخر تمامًا.

وواقعية أتيكوس الجلية تبدو كذلك من خلال وجهة نظره عن البشر في العالم المحيط بنا .. فهم بشر فقدوا الكـــثير من عقولهم بسبب المؤثرات التي حولنا .. فأصبحوا يروون الأوهام على أنها حقائق.. وعبر عن وجهة نظره تلك من خـــلال حوار بينه وابنه جيم في الفصل الثالث و العشرين .. فقال " **هناك شيء ما في عالمنا هذا يجعل الناس يفقدون عقولهم** ".

كان أتيكوس حكيماً حقاً في كل أحداث الرواية .. وكانت الرواية نافذة جعلتني أطل منها على المجتمع الأمريكي في وقت التمييز العنصري بين البيض والملونين .. وكانت نافذة كذلك على هذا الفن الروائي لدى إحدى الأمم المتقدمـــة في مجالات عدة .. منها المجال الأدبي .. وختامًا أقول، إنني استمتعت وكذلك تعلمت.